الأبعاد الاجتماعية للأمثال الشعبية – مقاربة تأويلية–

The social dimensions of popular proverbs - an interpretative approach –

د.بوزيد رحمون

الرتبة العلمية: أستاذ محاضر – أ –

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة . الجزائر .

rehmoun.bouzid@univ-msila.dz

ملخص

التراث الشعبي مركب خصب من الثقافة الروحية والمادية للشعب، وتناوله كحياة ودراسته كتعبير هو دراسة للشعب وكشف عن شخصيته، فقد قدمت الأمثال الشعبية صيغة شاملة لثقافة الإنسان الشعبي واحتوت نظرته إلى الحياة بوضوح، والبحث في المثل العام إنما هو بحث في حياة فئات العامة من الناس على اختلاف نشاطهم وسلوكهم في تعاملهم وأخلاقهم وعاداتهم، و المثل من خلال الجزئيات الصغيرة التي يعرضها في تواضع وهدوء يناقش هذه المواضيع ويفسرها ويعطي صورة حية لطبيعتها.

الكلمات المفتاحية

الأبعاد. المجتمع، المثل، التأويل ، الشعبي ، التراث

Summary

Folklore is a fertile compound of the spiritual and material culture of the people, and its handling as a life and its study as an expression is a study of the people and the disclosure of his personality. The difference in their activity and behavior in their dealings, morals and customs, and the example through the small particles that he displays in humility and calmness discusses these issues and explains them and gives a vivid picture of their nature.

key words

Dimensions. Society, ideals, interpretation, folk, heritage

ومن هنا يتبين أن الأمثال قد استمدت مادتها من المجتمع فهي بذلك احتوت قيمه ومعتقداته وحقائقه وقدمتها من يبلر بعد للفرد حكمة يسترشد بها في حياته، لذلك فإن ارتباطها بالمجتمع ارتباطا وثيق ويمكن أن نستوضح صورة المجتمع، قيمه ومعتقداته ومثله من خلال الأمثال، وهذه القيم والمعتقدات والمثل هي روافد حكمة الإنسان الشعبي في الحياة.

وهذا المفهوم يستطيع أن يفسر أهمية الاتجاه نحو دراسة الأمثال التي تعد دراسة للقطاعات الشعبية صاحبة الجهد الحقيقي في بناء الدول، والواقع أن دراسة القطاعات الشعبية من خلال نتاجها الفكري تعد خطوة جديدة في مجال الدراسات الإنسانية تفرضها ضرورات إنسانية واجتماعية وعلمية.

إن المثل الشعبي يغذي الفكر السائد للطبقات المكونة للمجتمع من خلال الخبرات والتجارب التي مرت بها وصاغتها في تلك العبارات القصيرة التي تلخص حدثا أو تجربة فتحصيه وموقف الإنسان من هذا الحدث أو هذه التجربة في أسلوب غير شخصي وأنه تعبير شعبي يأخذ شكل الحكمة التي تنبني على تجربة أو خبرة مشتركة.

يتضح من هذا أن هناك أساليب ثقافية يستطيع الإنسان بواسطتها التعبير عن نفسه، وبإمكان هذه الأساليب الحفاظ على قيمة استخدامها التي تحققت عبر الأزمان وذلك بسبب امتداد جذورها عميقا في المجتمع. وبإمكانها أن تتخذ بعدا جديدا بمرور الزمن وستتخذها الأجيال الجديدة ليس بسبب قيمة استخدامها الأصلية، بل بسبب قيمتها الثقافية العالية.

يربط التراث بين الأجيال المختلفة ويوحد اهتماماتها حيث يربط بين الأفراد الذين يعيشون في مكان واحد وينتمون إلى مناطق مختلفة، وهنا تكمن الأهمية التاريخية للتراث، فهو يزيل حواجز الزمن ويشكل كيانا قوميا وثقافيا معينا ويصبح جزءا من الكيان الاجتماعي لمجتمع معين.

ويتخذ المثل الشعبي طابعا أخلاقيا، فهو يدعو إلى قيم الجماعة وإلى تكريس مثلهم ونهجهم الأخلاقي ويمكننا رصد عناصر هذا النهج الأخلاقي من خلال الأمثال المتوفرة عن جماعة ما أو بيئة شعبية معينة، ويبدو المثل مادة يسهل التعرف من خلالها على كثير من العادات والتقاليد التي اعتادت الجماعة على سلوكها وممارستها.

لقد أصبح من الحقائق المؤكدة أن تراث أي مجتمع من المجتمعات هو انعكاس للحياة الاجتماعية في الماضي مثلما هو صوت الحاضر المدوي وصدى له، وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن القول إن إلقاء نظرة شاملة على مكنونات هذا التراث وعناصره المختلفة تعطينا صورة واضحة عن بنية المجتمع وعن نسقه الثقافي بشكل عام.

ومما لا شك فيه أن الأدب نتاج فردي، كما هو نتاج الحوار المتبادل بين كثير من الأوضاع الثقافية والسياسية، والاجتماعية، إنه نوع من الصراع الحتمي بين الايديولوجيا الشخصية، والايديولوجيا الجماعية لشعب ما.

فكما هو تعبير ذاتي، يعد بالمماثل تعبيرا اجتماعيا، لذا يوصف في كثير من الأحيان بالظاهرة الاجتماعية، يلم بجميع الحتميات التي تفرضها الظروف الاجتماعية، لذلك فهو لا يولد إلا من رحم الصراع القائم في عمق النفس بين ما هو ذاتي وما هو جماعي.

وبما أن الإنسان يخضع دائما في تفكيره وشعوره لسلطة المجتمع فهو في شد وجذب بين السلوك الشعبي والسلوك غير الشعبي، ومن الرموز الأدبية للسلوك الشعبي نجد الأمثال الشعبية، التي تعد بحق سرا من أسرار الإلهام الشعبي وتعبيرا حيا عن المكنونات والطاقات الهائلة التي تزخر بها الشعوب، فبواسطتها يتم التوصل الى أخلاق الأمم وأطوارها، ومنها تؤخذ حالتها الاجتماعية والإخبارية.

فرغم قصر المثل الشعبي إلا أنه لفت انتباه الدارسين وأولوه عناية خاصة، فراحوا يبحثون عن سّر فلسفته الجمالية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وقد تفاوتت النظرة إليه من حيث شكله ووظيفته، فعبد الرحمان التكريتي يرى بأن الأمثال

تعدّ خلاصة التجارب وسجل الوقائع ومصدر التراث، بل هو مرآة الأمم التي تعكس واقعها حين يقول: ((أمثال كل أمة خلاصة تجاربها ومستودع خبراتها ومنار حكمتها ومرجع عاداتها وسجل وقائعها وترجمان أحوالها ومصدر تراثها ومتنفس أحزانها... فهي مرآة الأمة تعكس واقعها الفكري والاجتماعي بصفاء ووضوح))1.

بينما يرى حسين الجليلي بأن الأمثال خلاصة حكاية أو حادثة ذهبت وبقي هو رمزا لها كما قد يكون قولا يأخذ طابع التعليم والوعظ والإرشاد دون أن يرتبط بقصة أو حكاية، يقول: ((الذي أعتقده أن المثل: خلاصة حكاية قيلت أو حادثة وقعت في وقت من الأوقات، فذهبت وبقي المثل رمزا لتلك الحكاية أو موجزا لحوادثها، وقد يكون المثل تعليميا أو وعظيا أو إرشاديا، ولم يرتبط بقصة أو حكاية))2.

أما أحمد أمين فالأمثال الشعبية تمثّل عنده ((نوعا من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية ولا تكاد تخلو منه أمة من الأمم، ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب))3.

أما فوزي رسول فالأمثال عنده حياة كاملة، وفضاء يحوي كل الفنون إلى جانب كونه صورة من البلاغة العربية بتركيبته الفنية والجمالية، وفي هذا المعنى يقول: ((إن الأمثال، بحق، دنيا كاملة: حكمة وأحلام، حماسة ووصف، سياسة واقتصاد وقواعد صحية واجتماعية، هي صور من البلاغة العربية، وهي بعد ذلك حياة وما فيها من هموم وشجون))4.

ومن الباحثين الغربيين نعرض موقفين لفريدريك زايلر والكسندر كراب، فالمثل عند الأول قول يتداوله الشعب، يتميز بطابع تعليمي وبشكل أدبي، يقول: ((المثل هو القول الجاري على ألسنة الشعب الذي يتميز بطابع تعليمي وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة))5 .

أما كراب فالمثل عنده يمثل أسلوبا ((من أساليب الفولكلور العريقة تردد خلاصة التجربة اليومية وأن الإبداع في صياغة الأمثال يكمن في إبداع أفراد في الأصل، ولكن جمهرة الشعب والعامة هم الذين أذاعوها وروّجوها وتواتروها))6.

رغم هذه – الجزئية – في النظرة إلى المثل الشعبي، إلا أنه في النهاية لا يخرج عن كونه صورة حية ناطقة لطبيعة الشعب، وسجل ثقافي حافل بكل أنماط الحياة وتفرّعها وأنشطتها المختلفة، وهذا ما يفسر أهميته في مجال الدّراسات الاجتماعية باعتباره وثيقة اجتماعية، كما في مجال الدراسات الأدبية باعتباره من ألوان الفن الأدبي، وحين تتآزر الدراستان الاجتماعية والأدبية، فإن الصورة الشعبية تبدو زاهية ذات ألوان حية صادقة.

وما يزيد من سحر الأمثال الشعبية أنها تصاغ بلغة متميّزة، وهي مسجوعة في أغلب الأحيان، وهذا ما يجعلها أسهل للحفظ ومن ثمة أكثر تداولا وانتشارا وأسرع إلى التغلغل في أعماق الإنسان الشعبي.

إلى جانب ذلك، فالمثل يمتاز بألفاظه القليلة التي تحمل الكثير من المعاني وتطوي الكثير من التفصيلات، وربما هذا الذي دفع أبا هلال العسكري للقول: ((ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جلّ أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ، ليخف استعمالها، ويسهل تداولها، فهي من أجلّ الكلام وأنبله، وأشرفه وأفضله، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ويسر مؤنتها على المتكلّم، مع كبير غايتها، وجسيم عائدتها، ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب، والحفظ موكل بما راع من اللفظ وندر من المعنى)).7

وكما تفضّل فوزي رسول سابقا، فإن الأمثال الشعبية دنيا كاملة، حكمة وحماسة واقتصاد وصحة واجتماع، غير أن الإلمام بهذه الجوانب في هذه المناسبة أمر صعب، لذلك قصرنا بحثنا على جانب واحد، يتمثل في الدلالات الاجتماعية.

وأعتقد أن إلقاء نظرة – ولو بسيطة – على الدلالات الاجتماعية لهذا الجنس الأدبي تعطينا صورة واضحة عن بنية المجتمع وعن نسقه الثقافي بشكل عام، والوقوف عند الاختلافات الحاصلة بين نمط وآخر من الأمثال يكشف لنا عن دينامية

هذا المجتمع أو ذاك، وعن حجم استجابة أفراده لعناصر التجديد وقوى التغيير في كل مرحلة من مراحله، لنصل في الأخير الى جانب من العلاقة النوعية بين الأدب والمجتمع.

والناظر في الأمثال الشعبية الجزائرية دون شكّ أنه سيخرج بجملة من القواعد السلوكية التي تنبئ عن طبيعة هذا الشعب.

فلو أخذنا المثل القائل (**الذّاب دابي وركوبي من لّورا**) يتسرّب إلى ذواتنا الإشارة إلى التمايز الطبقي، إنّنا نحسّ بوجود فئتين في المجتمع، فئة تشقى وتتعب وتكد لأجل انتفاع فئة أخرى، فهناك حالة من غياب العدل و التوازن، لذا جاء هذا المثل تنفيسا للشعب جراء تسلط فئة على أخرى، ومن هذا المثل نستطيع أن نتصّور الحالة الاجتماعية التي يعيشها الناس، ونستطيع أيضا بناء فكرة عن إحساسهم بما هم عليه، فلولا وعيهم لحالة اللاتوازن والاستغلال لما أمكن أن ينطلق هذا المثل على ألسنتهم، وهذا الذي أهّل الأمثال الشعبية أن تصبح مداخل أساسية لدراسة أحوال الشعوب وأنماط معيشتها وطرق تفكيرها واتجاهات تقدّمها الحضاري.من هنا فالأمثال مصدر مهمّ جدا للمؤرخ الأخلاقي والاجتماعي، فلو نظرنا في الأمثال التي قيلت في العلاقة بين الأم وابنتها، لاستطعنا تحديد طبيعة تلك العلاقة، من هذه الأمثال نذكر:

قلّب البرمة على فمها تخرج البنت لمها.

البنات على لمات والخيل على السادات.

ما يشكر لعروسة غير أمها ولاّ فمها.

فهذا الإجماع على تبعية البنت لأمها يعطينا فرصة لمحاولة توجيه سلوك البنت وتربيتها التربية الحسنة، إن نحن تحكمنا في سلوك الأم، كما يعطينا من جهة أخرى توجيها لاختيار الزوجة المناسبة، وبناء أسرة فاضلة، بل ومجتمع فاضل، وبهذه الكيفية يصبح المثل مادة نتعرف من خلالها على كثير من السلوكيات الحياتية، وسلاحا لمواجهة الانحرافات الاجتماعية، إنه سياج من القيم يضربه المجتمع من حوله لكي يحمي نفسه.

ونحن نتحدّث عن المرأة نشير إلى أن هناك أمثالا شعبية تشير إلى بعض القيم الخاطئة في **حق المرأة، من هذه الأمثال نذكر:**

مرتك شاورها وخالف رايها.

معريفة الرجال كنوز، ومعريفة النساء نجاسة يا لوكان عجوز.

اللي أيحوّس على الخراب يكثّر النساء ولكلاب.

كية النساء ماتتنسى ومرقتهم ما تتحسى.

بات ليلة مع اخوتاتو طلق مرتو.

تبكي لمره قبل الزواج، والراجل يبكي بعدو.

الذي يستشفّ من هذه الأمثال أن المرأة مصدر لكثير من المصائب والمهالك – إن لم نقل كلها – فهي توصف بقلة التدبّر والحكمة، بالنجاسة والخراب، بالفتنة والهلاك، وليس أكثر من أنها صنّفت مع الكلاب في مستوى واحد.

دون شكّ أنّ هذه الصفات تقلّل من قيمة المرأة وتحقّرها، ففيها ظلم وتعسّف واضطهاد والمرأة هنا مقترنة بالخطيئة، وكأنها مخلوق دون فائدة، وهذه سخرية لا يقبلها المنطق، وتتنافى مع تعاليم الشريعة السمحاء، فالإسلام كرّم المرأة ومجّدها، ومنحها مكانة مشرفة ولم يفرّق بينها وبين الرجل، إنها الأم والابنة ، الأخت والزوجة، العمّة والخالة الجدة والحبيبة، فمن أين للرجل إذن أن يطعن فيها ويسلبها حقها، إنها نظرة ضيقة ولا تعبّر إلا عن رأي أفراد دفعتهم تجاربهم الشخصية لأن يصنعوا مثل هذه الأمثال، وهذا يدفعنا للقول بأن الرؤى ليست حقائق مطلقة في عموم الأحوال، ذلك أن الذي يصلح في فترة قد لا

يصلح في فترة أخرى، وما يطبّق على مجتمع قد لا يطبّق على مجتمع آخر، إنها رؤى لا تتحقق في كل زمان ومكان، فالأسس والمفاهيم تتغير باستمرار نتيجة للتغيرات الثقافية التاريخية والاجتماعية.

ومن المواضيع الاجتماعية الأخرى التي طرحتها الأمثال الشعبية، الكسل، كقولهم:

طويلة وعريضة وفي اليدين مريضة.

ربع نساء والقربة يابسة.

لالاّ أمليحة، وزادها ريح النفاس.

سيدي أمليح، وزادو لهوا والريح.

الراقد ما عطاتو أمّو كسره .

وبما أن الأمثال لا تصف الظاهرة فحسب، راحت تقدم الحلول، وتمثل ذلك في الأمثال الآتية:

أضرب أذراعك تاكل لمسَقِّي.

الخدمة مع النصارى، ولا لقعاد خسارة.

الحر حر والخدمة ما تضر.

ترصد الأمثال هنا الظاهرة وتعالجها، لذا فهي من الوسائل الفعالة في المجتمع في توجيه الأفراد وتعريفهم بالقواعد السلوكية المستحبة التي ينبغي اتباعها، والقواعد السلوكية التي ينبغي الابتعاد عنها.

وكما عالجت الأمثال الشعبية الكسل، عالجت أيضا، الطمع والنّفاق، نذكر في الطمع الآتي:

أذكر الماء، يبان العطشان.

كي شاف الضيفة طلّق مولات الدار.

على كرشو خلى عرشو.

جا يسعى ودّر تسعة.

مول الخبزة طامع في مول الجدق.

اللي عجبك رخصو تخلي نصو.

اعطيناه الالبربوشة لا ح يدو للخليع.

اعرضت بنتي جا راجلها.

وفي النفاق:

ياكل مع الذيب، ويبكي مع الراعي.

ينغز الداب، ويدّرق بالبردعة.

ياكل في القلة وسب في الملّة.

لالاّ عدوة و حاجتها حلوة.

في الوجوه امرايا وفي الذيول امقاص.

هذه الأمثال تعبير حي عن السلوكيات الخاطئة التي تنهش بنية المجتمع، كما هي دليل واضح تعيش مع الشخص مرات عديدة في يومه ويتسرب إلى دقائق وكبائر حياته ، تطرح وتناقش وتفسر.

فالأمثال بمعالجتها لهذه المواضيع تكون قد قدمت سجلا شاملا عن ثقافة الإنسان الشعبي، واحتوت نظرته إلى الحياة بكلّ صدق ووضوح. والنظر في هذا السجل كشف عن حياة الناس على اختلاف نشاطهم وسلوكهم في تعاملهم وأخلاقهم، وكيف تولدت هذه العلاقات ومداها ودورها في تكوين أخلاقيات الناس، ومن هنا تتحدد الدلالات الاجتماعية للأمثال الشعبية، وإذا كان المؤرخ لا يقف عند دقائق الحياة الاجتماعية، والشاعر لا يذكر إلا جوانب خاصة من جوانب الحياة الاجتماعية التي يراها هو دون أن يراها المجتمع، فإن الأمثال الشعبية هي المعبر الروحي والمادي عن اهتمامات وانشغالات المجتمع، فهي ناقل لمحصلة وخبرة المجتمعات، وما من شكّ في أن الإفادة منها أمر محقق، وانطلاقا من كون الأمثال نتاج جماعي، فهي إذن تكشف عن جوهر شخصية قائلها، وبهذه الكيفية يكون ربط الأدب بعلم الاجتماع ربطا عضويا وثيقا.

إنّ عالم الاجتماع بحاجة إلى العودة إلى الأمثال الشعبية كي يدرس ويحلل، ويكشف ويستكشف أحوال المجتمعات، ونوعية العلاقة التي كانت بين الأفراد، وإذا كان الأدب يقدّم لعالم الاجتماع هذه الخدمة، فإن عالم الاجتماع يمكن أن يقدّم خدمة للأدب في أنه يقدّم له خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية، وفي هذا المعنى يقول إيدانوف: ((يجب أن ينظر إلى الأدب في علاقته غير المنفصلة عن حياة المجتمع، وفي خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الأدب، هذا كان دائما المبدأ الموجه في الأبحاث الأدبية السوفيتية وهو يرتكز على المنهج الماركسي –اللينيني في إدراك الحقيقة وتحليلها، ويستبعد وجهة النظر الذاتية والاعتباطية، التي تعتبر كل كتاب كيانا مستقلا ومنعزلا، فالأدب ظاهرة اجتماعية، هو الإدراك الحسي للحقيقة عبر المصّورة الخلاقة))8.

ومن الكسل والطمع والنفاق إلى البخل والمكر، الخداع والحسد، العناد والاستهزاء وتحمّل المسؤولية، الأصالة والمحبة.

. أمثال البخل:

الفروج مايبيّض.

خياط و مشتاق مسلّة.

طباخ و شاتي مرقة.

جزار وعشاه لفت.

القط ما يمد الشحمة.

في رجليّ ولا في سباطي لحمر.

جيبو في ظهرو.

الصدقة ما تخرج من الحبس.

أخدم يا الشاقي للباقي.

. أمثال في المكروالخداع:

اللي حفر حفرة لخوه طاح فيها.

اللي باعك بالفول بيعو بقشورو.

ما يعجبك نوار الدفلة في الواد داير اظلايل... و مايعجبك زين الطفلة حتى تشوف لفعايل.

الزين أوقلة الدين.

. أمثال عن الحسد:

الرجالة تكسب، والناس تحسب.

. أمثال العناد:

قال العظم أنا يابس، قالو الكلب أنا فارغ شغل.

معزة ولو طارت.

أنت عليك بترقاق الكسره ، وانا عليَّ بالماكلة مرتين.

. أمثال الاستهزاء:

المذبوحة تضحك على المسلوخة، و لمقطعة تضحك عليهم في زوج.

وش من كرش تولد الذراري.

قد النملة و يعمل عملة.

الطول والجياح.

. أمثال عن تحمّل المسؤولية.

اللي ضرباتو يدو مابكى.

عقدتها بيديك، حلها بسنيك.

ـأمثال عن الأصالة.

مايبقى في الواد غير حجارو.

كل طير يلغى بلغاه، وكل ماء يتبع مجراه.

. أمثال في المحبة.

اللي تحبو قابلو.

اللي يبغيني يقطع الواد ويجيني.

الحجره من عند الحبيب تفاحة.

اللي ابغاه قلبي ما ياكلو كلبي.

يمكننا رصد عناصر النهج الأخلاقي من خلال الأمثال السابقة، وهي أمثال تدعو إلى قيم الجماعة و تكريس مثلهم، التي اعتادوا على سلوكها وممارستها.

وبما أن المجتمع يرفض كل أشكال الانحراف، فإنه قد أنشأ أمثالا تدعو الناس دعوة مباشرة وبشكل صريح أن يعدّلوا من سلوكياتهم، فوجّهتهم نحو كثير من الأخلاقيات، من ذلك القناعة، فعلى الإنسان أن يقنع ويرضى بما لديه، كثيرا كان أم قليلا. من هذه الأمثال نذكر:

الشعير والراحة، ولا القمح ولفضاحة.

اللي ما شبع من القصعة ما يشبع من لحيسها.

ما تطلق اللي في يدك ما اتبع اللي في الغار.

اللي ما اكفاه قبرو ايجي فوقو ويقعد.

اللي ماشبع من اللحم ، ما يشبع من تكداد لعظم.

دورو في الجيب خير من عشرة في الغيب.

على المرء أن يتجنب الطمع ويقنع بما لديه وذلك لأن (**اللي ماهو ليك يعيّيك**).

المثل الشعبي من حيث هو انعكاس طبيعي لحياة الإنسان، فهو لا يرددها كالببغاء دونما هدف واضح أو سياسة مقصودة، ولكنه يدفع الناس إلى الخير، ويحذّرهم من الالتجاء إلى الشر متبعا أسلوب الترغيب والترهيب، وأحيانا أسلوب النصح، ومن الأمثال الشعبية الدالة على ذلك نذكر:

اللي فاتو وقتو، مايطمع في وقت الناس.

سال مجرّب ولا تسال طبيب،سال الثعلب ولا تسال الذيب.

اللي طاعك طيعو، واللي باعك بيعو.

بات على غيض، و ماتباتش على ندامة.

اللي عينو في الخبز الحامي يبكرلو.

دير الخير وانساه، وإذادرت الشر تفكرو.

دير كيما يدير جارك، ولاّ بدّل باب دارك.

خوذ الطريق الصحيحة ولو دارت، وخوذ بنت العم ولو بارت.

هذه إذن، جوانب نمطية من الأمثال الشعبية ذات الدلالات الاجتماعية التي تنم عن دينامية المجتمعات وتطور حياة أفرادها، وهي أمثال متجدّدة بتجدّد الحياة الاجتماعية.

ونحن نتحدّث عن التطوّر والتجدّد، نشير إلى ظاهرة توصف بالتناقض، كأن نجد المثل ونقيضه، مثل قولهم: دمّك هو همّك. فهذا المثل يتناقض مع الأمثال الآتية:

خوك خوك لا يغرّك صاحبك.

الكلب ما ياكل خوه.

بنت عمّك تستر همّك.

الواقع أن هذا ليس تناقضا، بل تعبير عن تجارب مرّ بها الإنسان وخلّدها أمثلة لا تزال تعيش بيننا، فالذي تأذى من أقاربه دون شكّ أنه سيترجم ذلك دون زيادة أو نقصان، وهذا من صميم وظائف الأمثال الشعبية، فهي تعبير صادق عن حقائق الحياة الاجتماعية في مختلف جوانبها.

إنّ الأمثال التي صنعتها الذاكرة الشعبية للمجتمع الجزائري وبقيت تتزامن معه حتى وقتنا الحاضر بصورة حية، شكلت جانبا مهما من حياته، من حيث مسيرته السياسية والاجتماعية والثقافية، تراثا ومعاصرة، إنها المرآة التي عكست عقليته، واتجاهاته وأخلاقه وتقاليده وحياته الاجتماعية،مما لانجده مسجلا في أي لون من ألوان المعرفة الأخرى.فالذي يتبحر في مكنون هذا الفن، يجد نفسه يعيش جزءا مهما من حياته ((ولعل هذا يفسر لنا استعمالنا الدائم للأمثال،على عكس الأنواع الشعبية الأخرى مثل الأسطورة والحكاية الشعبية والألغاز وغير ذلك، فالأمثال بالنسبة لنا عالم هادئ نركن إليه حينما نودّ أن نتجنب التفكير الطويل في نتائج تجربتنا.))9

وبما أن الأمثال قد استمدت مادتها من المجتمع نجدها قد عكست قيمه ومعتقداته وطرحتها دستورا حكميا يسترشد به، ويتضح من هذا أن هناك أساليب من التراث الشعبي يستطيع الإنسان بواسطتها التعبير عن نفسه، كما عن المجتمع، ويمكن لهذه الأساليب الحفاظ على قيمة استخدامها التي تحققت عبر المد الزمني. ويمكن لها أيضا أن تتخذ بعدا جديدا بمرور الزمن، وما من شكّ أن الأجيال الجديدة ستتخذها دستورا، ليس بسبب قيمة استخدامها الأصيلة، بل بسبب قيمتها الثقافية العامة،

من هنا فلا حرج من أن نقول بأن للأمثال الشعبية أهمية اجتماعية لا غنى عنها، فالمثل واحد من أشدّ الأسلحة فعالية في الصراع من أجل الحياة، وهو باق اليوم من أجل قيمته الاجتماعية غير المباشرة، وكذا من أجل سحره الجمالي المباشر.

الهوامش:

1 –عبد الرحمان التكريتي، الأمثال البغدادية المقارنة، مطبعة العاني، بغداد 1966 مقدمة الجزء الأول.

2 –حسين الجليلي، مجلة التراث الشعبي وزارة الثقافة والإعلام، بغداد العدد الحادي عشر السنة الخامسة 1974 ص89.

3 –أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1953ص61.

4 –فوزي رسول، الحماسة في المثل الشعبي البغدادي، مجلة التراث الشعبي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العدد التاسع السنة الحادية عشرة 1980ص14.

5 –نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، مكتبة غريب الفجالة مصر، ط3 ص175.

6 –ألكسندر كراب، علم الفولكلور. تر، رشدي صالح، دار الكاتب العربي للتأليف والنشر بالقاهرة 1967 ص36.

7 –أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، نقلا عن عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية،دراسة تاريخية تحليلية ، دار الفكر، دمشق ص 257.

8 –قصي الحسين، السوسيولوجيا والأدب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص115.

9 –نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، مكتبة غريب الفجالة، ط،3 ص182.